الأهرام

٢٦ / ٧ / ١٩٦٨

ليلة من ليالى بعلبك

يعض البيوت كالناس لها شخصيتها وطابعها المميز ، وهناك معابد تشبه البيوت، هرم خوفو يشبه كثيرا من بيوت الفلاحين المصريين باصالتها وامتدادها فى عمق الزمن وانغلاقها على الاسرار . ومعابد بعلبك تبدو هى الاخرى مثل انسان عجوز يمتلىء وجهه بالتجاعيد وقلبه بالاحاسيس .....

بقلم : احمد بهجت

هذه هى الاعمدة الستة لمعبد جوبيتر وهى تمد فى الهواء عشرين مترا . النظرة الاولى لمعبد جوبيتر توحى اليك انك امام انسان يعلى من الحق والوحدة والغربة ويحتمى بالسماء . لقد اكتشف الاله اليونانى جوبيتر ذات صباح انه ليس الها . وكانت الصدمة من القوة بحيث استقامت معظم اسنانه ، ولم يبق له غير هذه الاعمدة الستة التى تقف فى شموخ لا يخلو من ضعف ، ولقد زاد ضعف الاعمدة وهى تستمع لقصص الحب التى تغنيها هذه الفتاة القادمة من النيل .

النيل هنا فى لبنان هو افضل الالهة الوثنية القديمة ، لو كان للالهة الوثنية القديمة فى غير ميدان الفن فضل . النيل هنا فى لبنان يفرض نفسه عليك حتى بغير ان تقارنه بنهر الكلب ، ونهر الكلب هو اشهر انهار لبنان ، فعلى بعد خمسة عشر كيلو مترا شمالى بيروت يمشى نهر الكلب متكاسلا حتى يصب فى البحر ، وعلى شفتى هذا النهر نقوش وكتابات اثرية تظهر عندما يجف فى الصيف ، وتحدر هذه النقوش والكتابات الى الماضى البعيد هنا التى تبوخذ نصر على شجاعة المحاربين من رجاله ، وهناك روت الكتائب الرومانية قصة زحفها المتقر الى آسيا وعلى مبعدة منها نقش حفره جيش نابليون الثالث ، ورغم كل هذه النقوش لا يحمل نهر الكلب مذاق مياه النيل حتى قبل تنقيتها بتوتى الشمس ، الشمس فى لبنان جميلة ، واحلى من طعم الشمس الواقعى طعم مياه النيل المنخل ، ومثل مياه النيل اغنيات ام كلثوم ، شىء له مذاقه واسلوبه ، فاليلاد التى لا اساطير عندها يقضى عليها بان تموت من البرد ، ، حمدا لله على كثرة الاساطير المصرية .

● من شرب من مياه النيل مرة لابد ان يعود اليه مرات ..

وكذلك الحال مع اغنيات ام كلثوم ، تشربها مرة فلا تعرف مذاقها الا بعد ان تعاود بها مرات ، وهى تروى ظمأك فى كل مرة المزيد منها ، وربما تاه منك معنى ما يقال وسط وهج ما تحس ، وربما اسلمك الحن العام الى لحنك الخاص ، ولان الشيخ يعبد ماضيه ، يحب الرجال فيه تفكيرهم ، ومن هذا الحب يفيضون على اغنيات ام كلثوم .

— لماذا تحب ام كلثوم كل هذا الحب يا سيدى ..

● لانها تبعث الذكريات من امسها وترد اليها الحياة لحنا والدم انغاما وسحرا .

جوابنا هم ولكنه غير مقنع، ولابد ان هناك اسبابا اخرى لهذا الحب .

.....

بهمنا مثل ما يهمكم ماذا تغنيه ، وانما يعنينا اكثر لمن تغنى . الاغنية صوت جميل قد يصدر من البلبل ، وقد يصدر من الحمام ، وقد يصدر من الانسان ، وهناك من يغنى ليسمع صوته او يغنى ليسمع الفقراء ، او يغنى ليسمع الله ، وهذا كله غناء شخصى لا يرفع مضمونه اكثر من مضمون الرياح وهى تغنى وسط اشجار الليمون فى الاماسى الباردة .

وهذا الغناء كله لا يلفت انتباهنا او يعنينا ومعذرة ، انما يهمنا من يغنى من اجل قضية ، وعلى قدر شرف القضية يجىء نبل الغناء . نادت مضيفتنا (الكاتبة اللبنانية) ولدها الصغير الذى لم يبلغ عمره الثامنة وسألته : ماذا تريد ان تصبح عندما تكبر ؟

قال الصبى وهو يستدير نحو غرفته : فدائى .

قالت لى — اصبح الفدائى هو الرمز فى العالم العربى اليوم — اصبح حلما من احلام الاطفال .

وفهمت السر فى استقبال الشعب اللبنانى لام كلثوم — رغم كل شىء ، ورغم ما حملته مأساة الخامس من يونيو للشعب اللبنانى من كساد سياحى بلغ قرونه قبل تعيين وزير المالية الجديد رغم هذا كله يحس العرب هناك بشىء من المرارة وكثير من العار . وينظرون جميعا الى الفدائيين كحل لا مثيل له ولا بديل عنه فى مسح المرارة ودرء العار — انتهى الامر وتحولت شخصية الفدائى كل ابطال الاساطير فى العالم العربى — وفى الاساطير الاغريقية القديمة ان الهة كثير الاعداء ، ارتعدت سلامته بنبوءة تقول « سيموت يوم تنفصل قدماه عن الارض ، ويظل حيا ويتجو من جميع المخاطر ما دامت قدماه مثبتتين فى الارض » — وفى احد الايام ، تسلق شجرة ليختفى فيها عن اعين مطارديه ، ولما وجدوه تطوه سهولة — ولعله ما من شعب اليوم تنطبق عليه هذه الاسطورة الرمزية مثلما تنطبق على الشعب الفلسطينى العربى — ان اراد ان يبقى فعليه الا ينفصل عن الارض — عليه ان يواجه المخاطر التى يولدها ارتباطه الاقدام بالارض .

حتى لمسيحية لبنانية عن تجربة فريدة عاشتها اياما مع الفدائيين وياسر عمار خلال تحقيق صحفى اعدته عنهم فى الارض المحتلة :

قالت : قبل ان اعيش حياتهم كل خشونتها كان الموت مشكلة فلسفية اعلى منها ، لم اكن اهتم فكرة الزوال التى ينطوى عليها ، كنت افكر فى الاحاسيس التى تراود المرء وهو يموت ، هل يعرف ، هل يخاف ، هل يتألم — ثم اكتشفت الموت صورة جديدة عند الفدائيين ، صورة لم يعد يحدها الموت مخيفا لى —

قال الفدائى ردا على السؤال : اليس الموت اشرف من وقوفى بالمحن فى انتظار العدو — اتكون رجلا وامسك بالمحن وانتظر فى الطابور —

.....

ما اسهل الامر اذن ما دمت تعرف الشرف وتؤمن بالله — معظم الفدائيين يقيمون الصلاة . وحشة الصحراء وامتداد الخلاء يضعان القلوب مباشرة على السر المعجز — والقلب يعرفون الله يعرفون الشرف ، وقديما قال على بن ابى طالب:

اى يومىك من الموت افر
يوم لا يقدر ام يوم قدر
يوم لا يقدر لا تحذره
ومن المقدور لا ينجو الحذر

لا يلبس الفتى فاخر كله لعبة لها قواعدها وليس الموت بالضرورة هو الخسارة —

.....

وعندما يسقط احدهم شهيدا فى معركته ، تقام عليه صلاة الشهيد ثم يعود الى الارض الام اخيرا وقد نجا من الموت معتنقا للابد الكرامة وان حسبه الناس قد مات .

ان نغنى من اجل هؤلاء — ان نغنى من اجل المجهود الحربى — ذلك غناء يشبه كلمات الشاعر الفلسطينى محمود درويش .

غنائى خناجر ورد
وصمتى طفولة رعد
وزنبقه من دماء
فؤادى .

.....

الوقت مساء ...

الشمس تغرب وراء اطلال معبد بعلبك —

سنغنى ام كلثوم وسط هيكل جوبيتر وهيكل باخوس . وكلا الهيكلين ينحدر الى العصر اليونانى والرومانى ، ولكنك لا تستطيع ان تبلغ عمالة الهيكلين الا اذا سرت فى رواق طويل بناه العرب ، ووسط هذا الرواق اثار مسجد لم تبق منه الا المئذنة ، وباب من النحاس وبعض الجدران — لم تصل ام كلثوم بعد الى بعلبك ، وان اثار وصولها الى بيروت لازمة حى الصحافة والسلطة .

فقد منحت سلطات المطار رجال الصحافة من دخول مسلمون الشرف ، واتصل الصحفيون بنقيبهم فحذر على الفور واقتحم بهم صلاون الشرف عنوة وهو يردد ان هذا التعرف فى جوهره حق قانونى مشروع ولا توجد قوة تستطيع ان تمنع الصحفى من الدخول الى مصادر اخباره وتمنعه من ممارسة عمله .

.....

وصلت سيارتها الى بعلبك اخيرا .

ابتلاق القلائد بالاتها الخمسة وزيد عقد كبير من الكراسى وسط الممرات ، بعد باريس والكويت وبلاد المغرب تعود ام كلثوم الى الشرق . الى هياكل الشمس فى بعلبك لتشدو ليلتين فتعيد الى الهياكل امجادها وفى حنايا الحب فيها روعتها وتسابيلها ، ويلتقى فى سماعها

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

العرب من كل ارجاء ...

حقيقة كانت هذه العبارة الاخيرة ... ان عديدا من سيدات العالم العربى يجلسن فى الصفوف الاولى ، تالية شقيقة وسيلة بورقيبة وسيدات المجتمع التونسى ، ابنة وزير الخارجية الكويتى وخطيبها ، سيدات عراقيات ومغربيات ، سيدات من لبنان والسودان .. سيارات تقف على باب المعبد وتحمل ارقامها سيارات سوريا والاردن ... كلهم جاءوا ليشربوا معنا من مياه النيل ، وهى مياه من شرب منها مرة لابد ان يعود اليها مرات ..

الظلال وسط الاظلال سحر آخر ...

ابراهيم ناجى الشاعر المصرى انبوعيى سيعث حيا بعد لحظات ، اكثر افكاره قربا من قلبه ستصبح اغنية بعد دقائق .. كان طيبا ورقيقا ومبذرا ومغلسا يحرق حياته لاستدفائه ويشعل وجوده مثل الشموع الرومانية من طرفيها كى يضىء لاحلامه .. عرق الحب فأى حب هو الذى فجر تعيسته هذه ... لا احد يدرى ..

هل وقع هذا الحب حقا ..

اطفئت انوار الصالة واضيئت انوار المسرح ، وقفت ام كلثوم تغنى .. النور مركز على الاعدة اليومية وام كلثوم ، غرقت جميع الاشياء الاخرى فى العتمة ، الجمهور والمقاعد والممرات ولم يبق مشتعلا سوى اطراف السجائر ، ويبدأ العسوت مسعوده من البقعة المضيئة ، وتدريجيا نكتشف ان عالما جديدا قد ولد ، وعالم الفن لايعطى اذن دخول الى ساحاته ، الا للمبدعين الحقيقيين من البلايين من المتابع الآدمية ولايتر الالاف الخمسة من هؤلاء ... فليحظ منهم اعظمهم حبا واكثرهم وفاء للتكريمات ..

ها حبيبى كل شىء بقضاء ،
ما بايدينا خلقنا تعساء ..

يتبدى القدر فى الشرق رهيبا مسيطرا ولا فكاك منه فى الحب وغيره ، والمرء معه يتسم بالاستسلام ، بيد ان هذا هو الشرق فما الحيلة ..

وتغنى ام كلثوم ، وتخلق ردود الفعل عند الالاف ، ثمة قوم يستمعون الى الغناء فى صمت حزين ، كأنهم على حافة البكاء .. وهناك من يعلن عن اعجابه بآهات طويلة ، وهناك من يصفق ، واذا كان الفن هو امتلاك ناصية الاحلام ، فقد كان هناك آلاف يحلمون ..

ثمة وجوه تألوفة هنا ..

ساعر ونبيل رسامان من القاهرة ، اتخذ كل منهما مكانه فوق الاحجار الاثرية وراح يرسم ، والفرق بين تسجيل الصورة للحفل والرسم بعيد ، الصورة الفوتوغرافية تجميد للحظة انفعال معين ، اما الرسم فتعبير عن هذا الانفعال من خلال رؤيا الرسام واذا كان الرسام قد اعتاد ان يرسم الطبيعة فى لحظات الصمت ، فها هى الطبيعة فى لحظة من لحظات الحركة ، وهذه الطبيعة التى تتكون من جمهور الحفل ليست متطلبا جاهزا ، انما تمتلىء بالمتناقضات ، ليست كل الوجوه فيها على درجة واحدة من

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

الأهرام

الاكتمال ، وهكذا يوضع الرسام امام عملية الاختيار .. ولقد اختار ماهر ان يرسم هذه السيدة التى لا تكف عن البكاء طيلة الحفلة ..

اقتربت منها .. كانت تجلس فى الظل وتبكى بلا انقطاع .. حدقت فى ملامح وجهها وخيل الى انها ليست غريبة .. من تكون يا ترى .. من تكون .. سمعتُ اسمها فى ذاكرتى فجأة . نجمة عصرنى .. نجمة القاهرة فى الاربعينات وما قبلها وبعدها بقليل ..

هرمت النجمة وبدت آثار العمر فى وجهها الذى لا يخلو من جمال .

تذكرت يوم جئت الى القاهرة اول مرة .. وبدت القاهرة يد الصداقة ومسحت بها كل آلامك .. اى يد تحملها مياه النيل الثمانين .. يبكى فى مصر : الكاتبون القديم عند الكوبرى الاعلى ، لكن هذا اسم الكوبرى حتى انطلقت شهرة الكاتبون وحجبت اسم الكوبرى القديم فصار اسمه كوبرى خيمة ، كتبوا الاوبرا ، هذه المعالم التى نخرج فيها كل المغنين فى مصر ، نجيب الريحانى فى مدابته ولقاء الحب فالزواج فالانفصال .. ترى ابكتا كان المغفر وان كان السؤال نافيا فليس فى دنيا الحب مغفر ومحق .. اه .. النيل والسهرات وكبار رجال الدولة والوزراء والامراء .. كانت لهم موائدهم يا سيتى ، وكانت الوزارة الجديدة تؤلف احيانا وسط الحجرات المضيئة المتألقة على السهلون وهم يشاورون . دنيا كاملة تعطى كل شىء ، المتعة المتوهجة المتقدة والجد المتوهج الجد والحب الباحث عن الحب .. وفى ليالى الفجر فى القاهرة كانت الموائد تطوى على آلاف الاسرار التى لا تعرفها غير ملكة المكان الوحيدة ، خيمة عصرنى ..

لم تزل تبكى .. ام كلثوم تغنى وهى تبكى .. ام كلثوم تروى قصة حب ابراهيم تلغى وهى تبكى ..

ترى هل كان يلزمنى من زواد المكان .. قطعا كان .. وربما عرفته من خجله واطوائه وحلب السجاير التى كان يكتب عليها اشعاره ...

يا زمنا راح ..

آه .. آآ .. آآ ...

وعلينا نرجع تتى زمان .. قول الزمان ارجع يا زمان ...

جاءت الوصلة الثانية فهل تريدين ان تعودى الى الماضى ؟ لا جواب غير هذا السيل المتدفق من البكاء الصامت ... ان ترقيها بالحديث او السؤال فان للدموع والحزن والذكريات احتراما لا ينبغى للصحفية اقتحامه .. لاحظت بعينى عصرنى ان الرسام ينظر اليها والى الورقة فى يده .. لاحظت انه يرسمها ، وارتفعت يدها بحركة مفاجئة الى شعرها فسوته ومسحت دمعها وابتسمت .

وانسابت ابتسامتها الوجه المجعد قليلا ثم لم تلبث الابتسامة ان تمزقت وسقط نهرين صغيرين من الدموع ..

.....

لنمض فى جولتنا بالصالة ..

هاهى فيروز تجلس ومعها الاخوان رحبانى .. هذا هى صباح تجلس مع شقيقتها ، ان كل نجوم الغناء فى لبنان يستمعون لسيدة الغناء .

سئل طبيب الروماتيزم عن التأثير المنشط لام كلثوم ، وكيف يفسر سيطرتها على ميدان الطرب فى العالم العربى زهاء نصف قرن .. فقال — التيار القوى يحجب التيار الضعيف ، ولام كلثوم شمس فى نورها لكنها بسطع نور فيها ، فى اواخر القرن التاسع عشر سطع نور المغنية المطربة ثم المغنية ممثلة المهنية . وكان نورها القوى فحجب نور الاولى عن المسرح وفى الربع الاول من القرن العشرين ، ثم ظهرت ام كلثوم فاطفأت نورها كل التيارات التى سبقتها وما زال حتى اليوم شمس الشرق ..

نعم .. ان صوتها لا تجود السماء بمثله الا مرة كل مئة عام وهى تملك القدرة

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية

عظيمه على الانطلاق بطلاقة بين درجات سلمين موسيقيين كاملين تقريبا ؛ وصوتها ملك يدها تحركه كما تشاء دون اى ممانعة او عوائق ؛ وهناك هـــذا الثراء فى الذبذبات الصوتية التى يقوم عليها الغناء الشرقى فى حالات التجويد والتطريب .

وهناك أخيرا هذه الغزارة المذهلة من الحنان والحس الانسانى العميق ، الى جوار هـذا الاحساس الكامل باللغة واللحن .

.....

بدأت الليلة الاولى من ليالى بعلبك مثل اى ليلة من ليالى الشرق القديمة .. بعدها .. بعد ام كلثوم بدأ مهرجان بعلبك .. ان فكرة المهرجان بسيطة ومؤثرة ؛ معبدان اثنان او يتغير اصبح ما بقى من معبدين اثنين يجرى استغلالهما بصورة فكية .. تفتتح المهرجان ام كلثوم ثم تبدأ الليالى اللبنانية فى اعطيلس .. الليالى اللبنانية هى مسرحية غنائية تدور حول اسطورة قلعة قديمة .. قلعة يملأ انيسها القلوب رعبا ؛ ويحتلها رجل عجيب ، وتبدأ القصة بعودة الاميرة ليلى شقيقة الحاكم ، تعود ليلى (التى تلعب دورها صباح) ، بعد غياب استمر عشرسنوات ، ويخرج لاستقبالها عمها متسور على رأس اهل القلعة ، وليلى ومولها تافلة يتعلى رجالها تجارة الحرير فى الشام ، ولاينكلمون لغة التجار ، قائدهم يحب ليلى وشقيقه يحب بطراقصة .. ومن هـذا النسيج البسيط الذى يقوم على الحب والخديعة يقوم البناء .

والى جوار هذا اللون المحلى يقدم المهرجان فرقة مسرحية تحت اشراف واخراج منير ابو دبس . وتقدم الفرقة الشذوذ والقاعدة لريخت فى بيروت ، كما تقدم احتفالا لزنجى مقتول للمؤلف الطليعى ارابال فى بيروت ، كما تقدم فوست لجوته فى دير القمر وجبيل وطرابلس .. وهكذا تنتقل الفرقة من مدينة الى مدينة ، احيانا تقدم مسرحيتها فى احدى القلاع القديمة وسط الاشجار فى الهواء الطلق ..

والى جوار النماذج المحلية والعالمية تجىء فرقة اوركسترا فيلهارمونيك البرلينية .. ويعزف هربرت فون كارايان .. او يباشر الايقاع كما يطلقون عليه ، وكما سبق ان سمى موزار .

وفى معبد بعلبك تقدم باليه اوبرا ستوتجارت لبولون لايجور ستراڤنسكى ، كما تقدم روميو وجوليت لشكنسه بموسيقى البريجى وتوكوفيف السوفييتى

.....

قال الكتاب ذى الغلاف الجلدى المذهب والاوراق الصفراء ان ابا نصر الفارابى الفيلسوف العربى القديم دخل الى القاعة فاذا الخليفة يتحدث على الموائد وامامه المغنون والقيان والراقصات ويتوسطهم الوزراء ، وجلس الفارابى ومد يده الى العود وامسك به واصلح الاوتار وبدأ يعزف .. واذا موجة من الضحك العظيم تهجم على الخليفة وتهزم وقاره فيندفع فى الضحك ، ويضج المجلس كله بالضحك حتى توجعهم بطونهم .

وسكت الفارابى ثم عاد الى العزف فاذا موجة الضحك تنسحب امام موجة من الاسى العظيم التى تفجر ويبكى الخليفة والقيان والوزراء والجوارى حتى المنهم تليهم .

وسكت الفارابى ثم عاد الى العزف ، فاذا الضحك والبكاء يفسحان المجال لتماسك ثقيل يستحيل مغالبته ، وهكذا امسى الخليفة عينيه ونام ونام معه كل من فى المجلس .

وتأبط الفارابى عوده وخرج فى هدوء

هذه الحكاية التى تساق فى كتب الادب والموسيقى القديمة للدلالة على ان الموسيقى نوع من الفلسفة التى يمكن لها ان تغير من حال الى حال .. هذه الحكاية تجد لها انعكاسا فى مهرجان بعلبك فى حفل ام كلثوم !

الموسيقى تغير حال الى حال ، مرة ثانية لا نقصد هذا التغير من حال السكون الى حال التفوق واستحضار الذكريات بما يتبعها من فرح او حزن .. انما نقصد ان كل مقطع من مقاطع الاغنية التى تقال امامنا اليوم يمكن ان تتحول الى جرعة من المياه يشربها جندى او رسالة تنهيأ للانطلاق من سلاح لاحد الفدائيين ... هذه هى القيمة الاولى التى تعنينا اليوم .. وما أجمل ان تتحول الكلمات الى سلاح يدرأ العار وما اشد وطأته .

www.ethraadl.com
إثراء المعارف الرقمية